آيــة من ..

كتاب الله ..

الشهيد : سيد قطب

« وقالوا : إنْ نَتَّبِع الهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِن أرضِنَا . أوَلَمْ نُمكِّنْ لَهُم حَرَماً آمناً يُجبىٰ إليهِ ثَمراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَدُنَّا ؟ وَلكِنَّ أكثرَهُم لا يَعْلَمُونَ . وَكَم أهْلَكْنا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَهَا فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسكَنْ مِن بَعْدِهِم إلاَّ قَليلاً ، وَكُنَّا نَحنُ الوارِثينَ . وَما كَانَ رَبُّكَ مُهلِكَ القُرىٰ حَتىٰ يَبْعَث في أُمِّها رَسُولًا يَتلُو عَليهِم آياتِنا ، وما كُنَّا مُهْلِكِي القُرىٰ إلاَّ وأهلُها ظالِمُون . وما أُوتيتُم مِن شَيْءٍ فَمتاعُ الحياةِ الدُّنيا وَزينَتُها ، وما عِندَ اللهِ خَيرٌ وأَبقىٰ أفلا تَعقِلونَ ؟ أفَمَن وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ هُوَ يومَ القِيامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ ؟ » .

إنها الحياة السطحية القريبة ، والتصور الأرضي المحدود ، هو الذي أوحى لقريش وهو الذي يوحى للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويغرى بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار :

« وقالوا : إنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أرْضِنَا » ..

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامي ، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ، وأن هذا ليس وهما وليس قولا يقال لطمأنة القلوب ، إنما هو

حقيقة عميقة منشئوها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوى إلى ركن شديد ، في واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة في هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ولا يقتضى إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطهما معا برباط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف ، بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة .

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ : « إن نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِن أَرضِنا » . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان .

وقد رد الله عليهم في وقتها هذا العذر الموهوم . فمن الذي وهبهم الأمن ؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذي جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا ؟ تتجمع في الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة :

« أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُم حَرَماً آمِناً يُجْبىٰ إليهِ ثَمَراتُ كلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَدُنَّا » .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمنّهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟ !

« ولكنَّ أكثرَهُم لا يَعلَمون » ..
لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله .

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا ، وأن يأمنوا التخطف حقا ، فهاهي ذي علة الهلاك فليتقوها :

« وكم أهلَكنا مِن قَريةٍ بَطِرت مَعيشَتَها فَتِلكَ مَساكِنهُم لَم تُسْكن مِن بَعدهِم إلَّا قَليلًا . وَكنا نَحنُ الوارثين » .

إن بطر النِّعْمَة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى ، وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ، فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية .. « لَم تُسْكَنْ مِن بَعْدِهِم إلاَّ قَليلاً » . وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ، وتروى قِصة البطر بالنعمة ، وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدا ، ولم يرثها بعدهم أحد « وَكُنَّا نَحْنُ الوارِثين » .

على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده :

« وَما كانَ رَبُّكَ مُهلِكَ القُرى حَتى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلو عَلَيْهِم آياتِنا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلاَّ وَأَهْلُها ظَالِمُونَ » ..

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى ــ أي كبراها أو عاصمتها ــ أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي ﷺ في مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير . « وَما كُنا مُهلِكِي القُرىٰ إلاَّ وأَهلُها ظَالِمون » .. يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين !

على أن متاع الحياة الدنيا بكامله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من الأرض ، وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة ، إن هو إلا شيء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله :

« ومَا أوتيتُم مِنْ شَيءٍ فَمتاعُ الحياةِ الدُّنيا وَزينَتُها . وما عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى . أفلاَ تَعقِلون ؟ » .

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ، ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ، ولا لما وهبه الله

للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ ، وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله « مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا وزينتُها » .. « وما عِندَ اللهِ خَيرٌ وأبقىٰ » خير في طبيعته وأبقى في مدته .

« أفلا تَعْقِلون » ؟..

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار !

« في ظلال القرآن »

الحجامة والتداوى للمُحرم

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : احتجم النبي ﷺ وهو مُحرم .
هذه رواية البخارى ومسلم .
وللبخارى أيضا ، أن النبي ﷺ احتجم وهو محرم ، واحتجم وهو صائم .
وله في رواية أخرى قال: احتجم النبي ﷺ في رأسه وهو مُحرم ، من وجع كان به ، بماء يقال له : لَحْيُ جَمَل .
وفي أخرى من شَقيقة كانت به .
وأخرج الترمذى الرواية الأولى .
وأخرج أبو داود الأولى والثالثة إلى قوله : كان به .
وأخرج النسائى الأولى .